الشيعة
والتصوف في بلاد النوبة

الشيخ محمد فاضل النقلاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعين به ونتوكل عليه ولا حول ولا قوة إلا به، ونشكره تعالى على نعمة الاسلام الصحيح القاطع النابع من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومن هدي الصادق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم .

أمـا بعـد فان هذه عجالة يسيرة وفذلكة تاريخية مقتضبة بل قد تكون رؤوس مواضيع تحتاج إلى البحث العلمى المركز قد نستجيب له فى مقبل الايام ان عشنا وربما قيض الله له من يوفيه حقه حتى يضع الحقائق المجردة من مصادرها الثابتة فى مقابل الترهات الباطلة التى زحفت متلصصة فى ظلام دامس على الاسلام وانتشرت باسمه وهو برئ منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ونسأل الله التوفيق وان يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم لا نقصد به سوى اداء الامانة العلمية واصلاح الحال الذى تردى إلى اعماق الهاوية السحيقة حتى اصبح الاسلام الحقيقى غريبا بين الخرافات والسخافات والبدع والانحرافات الباطلة. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

« التصـــوف »

اسم طرأ على الاسلام فى العصر العباسى اطلق على جماعة جعلت من لبس الصوف الخشن والزهد فى الدنيا والانقطاع للعبادة والرهبانية عزوفا عن النساء مع عمل قليل يسد الحاجة من السؤال والاستغناء عن المأوى والالتجاء الى المساجد فاذا منعوا افترشوا الأرض على الشوارع او الأذقة وقد يهيم بعضهم فى الصحارى او من بلدة الى بلدة داعين الى الزهد والتخلص من الدنيا ومباهجها ويغلب على وعظهم الاقاصيص المنفرة من اعباء الحياة الدنيا الحاضة على ذكر الله .

وقد جعلوا من خشونة العيش وخشونة الملبس شعاراً لهم ولما كان الملبس هو الظاهر البادى

للعيان وكان من الصوف الخشن فقد اطلق عليهم اسم المتصوفة كما اطلق على منهجهم الذى التزموه التصوف باعتبار ملبسهم المنظور.

وقيل التصوف مأخوذ من الصفاء لصفاء قلوبهم وحسن سيرهم وسماحة اخلاقهم وهذا قول مردود لأن صفا يصفو مصدره صفاء لا تصوفا وتصفى يتصفى مصدره تصفية لا تصوفا . والحقيقة انها نحلة تاريخية لا تنصرف إلى الاشتقاقات الصرفية وانما يرجع بها لشعار القوم فى مبدأ امرهم والاستحسانات العقلية هنا تزييف مقصود للتاريخ يدل على عدم الامانة العلمية .

وفى العصر العباسى نفسه بعد ان ترجمت الفلسفة اليونانية والرومانية من الغرب والفلسفة الفارسية والهندية والصينية من الشرق تأثر بذلك عدد كبير من العرب وابناء الفرس وعلى الخصوص بالمانوية الفارسية واندسوا وسط المتصوفة ومضوا يلوون عنق الآيات والاحاديث لتواكب نحلهم الفلسفية فى وحدة الوجود أو تناسخ الأرواح أو الحلول فانحرفوا بالتصوف الأول الى فلسفة تنافى الاسلام وتعارض نصوصه الواضحة وصار التصوف بدلا من البدعة المذمومة كفر بواح برهنت عليه كتب ابن العربى واشعار ابن الفارض وشطحات عبدالكريم الجيلى وغيرهم من فلاسفة المتصوفة .

وانبرى لهؤلاء الغزالى يرد على الفلاسفة فى كتابه تهافت الفلاسفة وراح يدعم المنهج الأول المبتدع فى كتابه المشهور «احياء علوم الدين» وتوالت الردود عليهم من علماء السنة المحمدية حتى بان مقصدهم وانكشف امرهم وما عاد مذهبهم ينطلى على عاقل له علم ودراية وفهم .

وما تعرض احد للاوائل الذين ابتدعوا المنهج الا تعرضا خفيفا لا يكاد يبين فما هو الا الزهد والعبادة والرهبانية التى ابتدعوها وما كتبت عليهم وصح ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «لا رهبانية فى الاسلام»[1] .

وقد سمعت أحد مشايخنا رحمه الله تعالى يكرر مراراً فى مناسبات متفرقة ان الابتداع الأول قد حدث فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يروى الحديث الصحيح الذى

(١) اخرجه الامام احمد فى مسنده بنحوه ٢٢٦/٦ . والدارمى فى سننه بمعناه فى كتاب النكاح ١٣٣/٢ .

يدل على ان جماعة من الصحابة ذهبوا الى حجرات امهات المؤمنين يسألون عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قر فى أذهانهم جهده رجعوا إلى انفسهم قائلين كيف وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فما حالنا بجانبه وتعاهدوا ان يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يقربوا النساء ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بامرهم امر باحضارهم وسألهم عما بلغه عنهم فاجابوا بالايجاب فرد هذا الحدث فى حزم صارم ونهى بليغ إذ قال ما معناه: «إنى اصوم وافطر واقوم وانم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى»(٢) وكان شيخنا رحمه الله يعقب على ذلك قائلا: اذن هؤلاء ليسوا على هدى الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان يعزى الى بعض الأئمة قوله «من احدث حدثا فى الدين يظنه صوابا فقد زعم ان محمداً خان الرسالة»(٣) وكان يقول ان الاسلام قد كمل وتم كما قال تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة : ٣

فلا حاجة للاستحسان فى الدين ولا رهبانية فى الاسلام والاسلام دين وعمل ودولة ولا مكان فيه لمن يؤمن ببعضه ويكفر بالبعض الآخر. واننى لاعتقد جازما أن شيخنا لم يجنح عن الصواب فيما قال اطلاقا .

وجاء بعد الفئة المتسللة المتفلسفة الجانحة فئة ثالثة من الجهلة والغوغاء والرعاع والعامة البسطاء الجهلة فاتخذوا من التصوف مهنة للعيش واكل اموال الناس بالباطل وورث الابناء على جهل اباءهم وراحوا يخترعون الأذكار المحرفة والرايات المزركشة والطبول والمزامير والاناشيد الموقعة فى معان تعج بالمبالغات المبتذلة والاطراء المتغالى والتوسلات التى لا يقرها

---

(٢) اخرجه البخارى فى كتاب النكاح ١١٦/٦ ومسلم فى كتاب النكاح ١٠٢٠/٢ ح (١٤٠١) كلاهما من حديث أنس بمعناه .

(٣) يُنسب هذا القول للامام مالك رضى الله عنه ولفظه (من ابتدع فى الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم انّ محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ خان الرسالة لأنّ الله يقول «اليوم اكملت لكم دينكم» فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم دينا) انظر الابداع فى مضار الابتداع للشيخ على محفوظ صـ ١٠٨ .

شرع الله المحكم واتخذوا للاموات اعياداً يتذاكرون فيها الخرافات الباطلة والحكايات الخيالية السخيفة التى تدل على الاستهانة بالعقول وتروج الى استعباد الناس وقيادتهم وتعطيل عقولهم مثل قولهم: «إذا كنت عند أهل العلم فاحفظ لسانك واذا كنت فى حضرة أهل الباطن فاحفظ قلبك» ويقولون الذى لا يحفظ لسانه عند أهل الظاهر يرمى بالجهل وهو عار والذى لا يحفظ قلبه من الانكار على اهل الباطل يسلب من الايمان ويموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله. فكأن الناس خلقوا ليكرنوا مقلدين لانصاف العلماء وهم اشر من الجهلاء أو خلقوا ليكونوا عبيداً لهذه الفئة من الجهلاء المدعين واسوأ استعمار هو استعمار العقول والقلوب والافكار. وهذه الفئة الثالثة هى التى تهيمن على العامة والغوغاء والرعاع من الناس فى واقعنا اليوم بسبب الجهل المطبق بالدين وبسبب دعمهم من انصاف المتعلمين وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول ما معناه: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بموت العلماء فيتخذ الناس رؤساء جهالا فيستفتون فيفتون بغير علم»(٤) وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول فى بعض روايات هذا الحديث المشهور «بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال: الذين يمسكون بكتاب الله حين يترك ويعملون بالسنة حين تطفى وان الدين ليأرز بين المسجدين كما تأرز الحية الى جحرها وان الدين ليعقلن فى الحجاز معقل الأودية من رأس الجبل(٥).

كيف ومتى دخل التصوف فى بلاد النوبة ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال لا بد أن نتعرض باختصار شديد للمذهب الشيعي فى السودان لأنه الأصل الذى بني عليه اسلام المسلمين فيه وما دام الأمر كذلك يصبح من الضرورى اللازم ان نتحدث عن المذهب الشيعى كتوطئة للاجابة عن السؤال الذى عقدنا

(٤) اخرجه البخارى فى كتاب العلم ١/٣٤ وكذا مسلم فى العلم ٤/٢٠٥٨ ح (٢٦٧٣) كلاهما من حديث عبدالله بن عمرو بنحوه .

(٥) هذا الحديث أخرج بعضه الامام مسلم من حديث ابن عمر بلفظ (إنّ الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية فى جحرها) الايمان ١/١٣١ ح (١٤٦). واخرجه الترمذى بنحوه فى الايمان ٤/١٢٩ ح (٢٧٦٥). واخرجه ابن ماجه الى قوله (فطوبى للغرباء) ٢/١٣٢٠ ح (٣٩٨٧). واخرج نحوه الامام احمد فى مسنده ٤/٧٣ ـ ٧٤ .

الباب له. ولأن التصوف كما قالوا: «هو الابن غير الشرعى للمذهب الشيعى والمذهب الشيعى هو الابن غير الشرعى للدين الاسلامى».

دخل العرب الى هذه البلاد رعاة فى القرن الأول الهجرى فى عهد امارة عبد الله بن ابى سرح الأموى فى خلافة الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه ومما يدل على ذلك المعاهدة التى سجلها التاريخ بين ابن ابى سرح وبين ملك النوبة ولم يكن لهم شأن يذكر فى الدعوة للاسلام غير اننا نجد فى المعاهدة اشارة الى مساجدهم والمحافظة عليها وسار الحال على ذلك تدفع ممالك النوبة المسيحية الثلاث «البقط» وهو الجزية كل عام الى امير مصر حتى جاءت الدولة الفاطمية فى سنة ٣٥٨ هـ الى سنة ٥٦٨ هـ بدأ عهد جديد بين النوبة من جانب وبين الفاطميين من جانب آخر وكانت المعاهدة بين الجانبين قد نصت بان يتعاونا ولا يتحاربا اطلاقا وان تفتح البلاد المصرية امام النوبة وان تفتح بلاد النوبة امام المسلمين وان تحترم كنائس النصارى ومعتقداتهم فى مصر وان تحترم مساجد المسلمين ومعتقداتهم فى النوبة وان يتبادلا التجارة وان يعاون المسلمون النوبة فى الحرب على اعدائهم وان يعاون النوبة فى الحرب الفاطميين على من يحاربهم الى غير ذلك من البنود التى تضمنها العهد الموقع من الجانبين واهم بند اخرنا ذكره لخطورة محتواه وهو ان يسمح النوبة للدعاة من علماء الشيعة بدخول بلادهم للدعوة لهم وقد دخل الدعاة حتى ان احدهم كما يذكر المؤرخون دعا الملك النوبى فى حفل حضره كل القسس والرهبان النصارى فى بلاط صاحب الجلالة الملك وقد وفق فى مجادلتهم ولكنهم لم يسلموا ولم يذكر التاريخ الاثر الذى تركه هذا الداعية على الملك ورجال الكنيسة وانما ذكر ان المسلمين من عرب وعامة من شعب النوبة كانوا مسلمين على المذهب الشيعى وان الاسلام انتشر على المذهب الشيعى فى ممالك النوبة حتى ان الخلفاء الفاطميين جعلوا اعتمادهم الكلى على النوبة فكان الجيش وقواده بل مؤتمن الخلافة وحاشية الخليفة كانوا من النوبة حتى آخر خلافة الفاطميين حيث قضى عليها صلاح الدين الأيوبى وهزم النوبة فى موقعة القصر المشهورة وهرب بقية الجيش الى بطن الحجر ثم الى بلاد النوبة بازواجهم واولادهم وناصبوا الايوبيين العداء ولما اصبح فى النوبة الجمهور الغالب من الشيعة المسلمين استولوا على الملك فى مملكة النوبة السفلى وهى اكبر الممالك ثم فى الوسطى واخيراً فى العليا وهى مملكة سوبا المسيحية التى تقع قريبا من الخرطوم الآن. ومن هنا نعلم على حسب ما جاء فى مراجع التاريخ ان الاسلام دخل السودان اسلاما شيعيا خالصا واليك المراجع التى تجد فيها

الحديث عن الدولة الفاطمية والعصر الذهبى للنوبة فى ظلها وانه لم تقم قط حرب بين النوبة وبين الفاطميين اطلاقا حتى سقطت دولتهم على يد صلاح الدين الايوبى وان قبيلة ربيعة العربية قد صاهرت ملوك النوبة وكان مقامها فى منطقة اسوان المصرية الى بطن الحجر وحتى دنقلا وما حولها للرعاة منهم وانهم قد اصبحوا شيعة للفاطميين وقلدوا امارة المنطقة ولما حارب ابو ركوة الأموى الفاطميين وهزم فى الموقعة الفاصلة وتشتت جيشه دخل بلاد النوبة خفية ولاذ بدير للنصارى وتتبعته ربيعة فى ظل اميرها وقبضت عليه حيا وقدم للخليفة فاعدمه ومنح الامير لقب كنز الدولة حتى اصبح اليوم ابناؤه واحفاده وما خلفوا قبيلة مشتقة من ربيعة ممزوجة بالدماء النوبية يطلق عليهم اليوم «الكنوز» .

أعود إلى المراجع فاذكرها فيما يلى :

١ ـ تاريخ اليعقوبى المتوفى سنة ٨٩٣. نشره «يونسو» فى بيروت عام ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

٢ ـ فتوح البلدان للبلاذرى المتوفى ٩١٢ طبع فى ليدن سنة ١٨٦٦ .

٣ ـ تاريخ الرسل والملوك للطبرى المتوفى سنة ٩٢٣ طبع فى ليدن سنة ١٨٧٩ و١٩٠١ .

٤ ـ نظم الجواهر «تاريخ الكنيسة الأرذكسية المصرية» لابن البطريق المتوفى سنة ٩٣٩ طبع فى اكسفورد سنة ١٦٥٨ و ١٦٥٩ .

٥ ـ صورة الأرض لابن حوقل المتوفى حوالى سنة ٩٧٠ طبع فى بيروت «نشرة يونسكو» .

٦ ـ مروج الذهب ومعادن الجواهر للمسعودى المتوفى سنة ٩٥٣ طبع فى باريس عام ١٨٦١ و ١٨٧٧ .

٧ ـ اخبار النوبة والبجة والنيل للاسوانى «غير مطبوع ولكن توجد منه مقتطفات فى كتاب الخطط للمقريزى .

٨ ـ تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع طبع سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ .

٩ ـ نزهة المشتاق للادريسى المتوفى حوالى ١١٦٠ طبعة مدققة صادرة عن المعهد الجامعى الشرقى بنابلى «ايطاليا» سنة ١٩٧٢ .

١٠ ـ الكامل لابن الأثير المتوفى عام ١٢٣٤ «١٤ مجلد» طبع فى ليدن ١٨٥١ و ١٨٧٦ .

١١ ـ كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين لابى شامة المتوفى عام ١٢٦٦ طبع فى القاهرة سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م .

١٢ ـ تاريخ المسلمين لالمكين بن العميد المتوفى عام ١٢٧٤ طبع فى ليدن عام ١٦٢٥ .

١٣ ـ تقويم البلدان ربى الفداء المتوفى ١٣٣١ «اربع مجلدات» طبعه : م . رينو فى باريس عام ١٨٤٠ و١٨٤٣ .

١٤ ـ مسالك الابصار فى ممالك الامصار للعمرى المتوفى عام ١٣٤٩ طبع فى القاهرة عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م .

١٥ ـ كتاب العبر لابن خلدون المتوفى عام ١٤٠٦ طبع فى مطبعة بولاق القاهرة عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م .

١٦ ـ كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى المتوفى عام ١٤٤٠ «٣ مجلدات» طبعه ج. فيت فى القاهرة عام ١٩١١ و١٩٢٧ .

١٧ ـ كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك. طبعة محمد مصطفى زيادة «٣ اجزاء» فى عام ١٩٣٤ و ١٩٦٩ .

١٨ ـ النجوم الظاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابى المحاسن التقريزى المتوفى عام ١٤٦٤ طبع فى ليدن عام ١٨٨٢ .

١٩ ـ المكتبة السودانية العربية. حققها وكتب حواشيها الدكتور مصطفى محمد مسعد طبع فى القاهرة عام ١٩٧٠.

٢٠ ـ طبقات ود ضيف الله المتوفى عام ١٧٠٩ حققه وعلق عليه الدكتور يوسف فضل حسن طبع فى الخرطوم عام ١٩٧١ .

إن المطلع الصبور سيقف على ما اجملناه فى هذه المصادر على الحقائق التى لا تقبل الجدل بحال من الاحوال عند الحديث عن ممالك النوبة والدولة الفاطمية وتاريخ دخول العرب الى السودان وما يختصر فى مرجع تراه مفصلا فى غيره وما يشار اليه اشارة عابرة فى مرجع تراه فى اطناب فى مرجع آخر .

ان هذه المقدمة المختصرة قبل الاجابة على السؤال المطروح فى العنوان رايتها ضرورية لابد منها من اجل زعم بعض الكتاب ان المسلمين فى السودان كانوا سنيين قبل ان يدهمهم التصوف وهذا ما يدحضه التاريخ ويثبت فى جلاء ان المسلمين فى السودان قبل ان يرد عليهم التصوف انما كانوا شيعة فى العقيدة ومالكيين فى العبادة وتجدر الاشارة للآتى لأنه مهم جداً .

ان الجامعة الأزهرية فى القاهرة انما انشأها الفاطميون لتكون مكانا لتدريس المذهب الشيعي ولتخريج الدعاة المؤهلين للتشيع ولقد ادت رسالتها كاملة فى العصر الفاطمى حتى قضى عليه صلاح الدين الأيوبى وحول الجامعة الأزهرية الى جامعة سنية وجعل رئاستها لعالم يختار من المذهب الشافعى لانه كان على هذا المذهب ولما كان علماء الشيعة يرون التقية واجبة فى المآزق الحرجة والمدلهمات وقد تمرسوا على ذلك حتى صار لازمة لهم وهم يستدلون على ذلك بان بيعة على رضى الله عنه للشيخين وعثمان رضى الله عنهم انما كانت للتقية وكتبهم زاخرة بذلك. فقد انصرف علماء الشيعة فى الأزهر فى ذلك الزمان الى المذهب المالكى وادعوا انهم مالكيون وتحت ستار هذا المذهب راحوا يدسون العقائد الشيعية ومن اجل ذلك ترى الفارق الشاسع بين المؤلفات المالكية بعد هذا التحول وقبله ولا تخطى عين الباحث الجاد الواعى فى المتون والشراح والحواشى عقائد الشيعة بل والتعصب الذى يتميز به الشيعة فى بعض العبادات كالسدل وغيره. ومن اجل ذلك نقول بثقة تامة ان السودان كان شيعيا اعتقاداً وعبادة قبل ان يدخل عليه التصوف ومن يشك فى ذلك فعليه بالمراجع حتى يتبين له الحق فى جلاء ساطع وما التوفيق إلا من عند الله والله وحده المستعان .

انني ارى بعد هذه التوطئة الضرورية ان اجيب على السؤال الذى بوبت له ملتزما فى الاجابة الاختصار الشديد جداً فما هى الا عجالة مضغوطة تلقى ضوءاً كاشفا للمثقف المستنير فتحثه على البحث والرجوع الى المراجع فيروى منها ظمأه حيث تتكشف امام بصره وبصيرته الحقائق الدامغة التى يقف عندها مذهولا مأخوذاً لأن الحقائق الراسخة مع مقارنتها بواقع اليوم المعاش تبدو اعجب من الخيال الجانح الذى يراه العقل ضرباً من الهوس أو نوعا من المستحيل وليجرب الباحث المثقف ليرى صدق ما رايناه فالحقائق لا تعرف بالتقليد الاعمى ولا تدرك بالاشخاص مهما يكن الاشخاص وانما تعرف الحقائق بالبراهين الساطعة والادلة الدامغة والحجج البارعة والنصوص الواضحة والمراجع المعتبرة وما عطل عقولنا عن الابداع والانتاج سوى التقليد الأعمى وما تردت عقولنا الا بالتبعية والذيلية الرخيصة ولن نتبوأ مكاننا الحتمى الا بالتحرر على اسس العلم الاصيل المجرد ونتخلص من التلقين الباهت والحفظ الذى لا ينطوى على فهم قط .

لقد أراد الايوبيون غزو السودان وحاولوا فلما راوا ان الخسائر لا تعادل الربح انصرفوا

عنه بمعاهدة يدفع بموجبها ملوك النوبة «البغط» وهو الجزية سنويا وكانوا يماطلـون فى ذلك السنوات والايوبيون مشغولون بالحروب الصليبية وملـوك النوبـة مشغولـون بالمؤامـرات مع الصليبيين ضد الايوبيين ودعاة الشيعة جادون فى نشر مذهبهم بين العامة والدهماء واصبح السودان محصوراً لا يخرج منه احد إلا خلسة ولا يدخل عليه احد إلا باذن الايوبيين ومن بعدهم المماليك والسودان فى هذه الفترة كان يتحول فى سرعة هائلة من المسيحية الى مذهب الشيعة والعرب الرحل فى الصعيد المصرى تحولوا الى السودان عند مضايقة المماليك لهم وقبيلة هلالة فى الجزيرة العربية وبعض القبائل فى تهامة هاجروا من المجاعة والجفاف الى السودان وقامت فى السودان الامارات العربية اما على مذهب الشيعة وما على الجهل المطبق بالاسلام الصحيح وتحولت لغة البلاد من اللغة النوبية الى اللغة العربية فاصبحت الغالبة إلا فى بعض المناطق التى تتحدث باللغة العربية محرفة مع لغتها حيث احتفظت بها الى اليوم جنبا الى جنب مع العربية المحرفة وفشى الاسلام فى كل السودان ما عدا الجنوب الوثنى وبعضا من جبال النوبة الوثنية حتى اليوم حيث وجد المبشرون المسيحيون فى هذه الاماكن مترعا خصبا لهم فى العهد التركى المصرى وزاد بعد المهدية فى عصر الاستعمار ووجدوا الحماية والعناية والدعم فى عهد ما بعد حل مشكلة الجنوب .

قيل ان الصوفية دخلت السودان على يد الشناقيط الذين يمرون عابرين الى اداء الحج أو الهجرة الى البلاد المقدسة بالسودان وانتشر على ايديهم فى شمال السودان فى القرن التاسع الهجرى التصوف على طريقة الشاذلى واثبات ذلك من الناحية التاريخية المدعمة بالمراجع المعترف بها ضرب من المحال كقبضة الهواء واحتواء باليد الماء. والامر المؤكد ان التصوف دخل السودان فى اوائل النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى على يد الشيخ تاج الـدين البهارى الذى قدم من بغداد ماراً ببلاد الشام فى مصر ثم دخل السودان ونشر الطريقـة القادرية وبعد ان اعد اتباعه اجازهم بالمشيخة وامرهم بنشرها فى سائر بلاد السودان فانتشروا يبشرون بها حتى غزت كل انحاء السودان ما عدا الجنوب وبلاد النوبة «جبال النوبة فى جنوب كردفان» ثم قدم الشيخ التلمسانى المغربى على الشيخ محمد بن عيسى سوار الدهب الانصارى نسبة للانصار «اى الخزرج بالذات لا الأوس» كما يدل على ذلك نسبهم الذى يحتفظون به حتى اليوم. وسلكه طريق القوم على طريقة الشاذلى وعلمه علم الكلام وعلوم القرآن من تجويد وروايات . ويزعمون كذبا ان الشيخ ادريس «ابو فركة» من قرية العيلفون

ظهرت عليه الولاية من غير شيخ قدم عليه وقد أخذ التصوف من الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة. وقيل نه أخذ طريق القوم من رجل من المغرب قدم عليه بالخطوة اسمه عبدالكافى فلما اشتهر الشيخ ادريس بانه أخذ الطريق من الرسول مباشرة ظهر بعده بقليل الشيخ حسن ولد حسونة زاعما انه صار وليا واخذ طريق القوم بمدد من الرسول مباشرة. وهكذا انتشر التصوف فى السودان ووجد أرضا خصبة قابلة له لان التصوف والتشيع اسمان لمسمى واحد لا يختلفان الا فى الشكليات دون الجوهر العقائدى. وكان للقادرية السبق والكثرة حتى دخل الاتراك والمصريون السودان قبل المهدية فجاء المصريون بطرق كثيرة نشرت على ايدى مصريين مثل الاحمدية البدوية والبرهانية والاحمدية الادريسية التى اشتقت منها الرشيدية والدندراوية والاسماعيلية والختمية ثم وفدت السمانية من المدينة المنورة ثم بعد فترة جاءت بعد المهدية من مصر وعلى ايدى مصريين الرفاعية والنقشبندية والعزائمية نسبة للشيخ ماضى ابو العزائم الذى مكث بالسودان فترة ينشر طريقته هذه ثم وفدت التجانية على ايدى المغاربة والشناقيط والفلاته وقد تميزت كل طريقة باذكار خاصة مصحوبة بالطبول والرايات وبعضها لا طبول ولا رايات وبعضها اكتفى بالرايات دون الطبول وبعضها اكتفى بالذكر السرى فى جماعات وبعضها بالذكر الجماعى جهراً وبعضها جمع بين السر والجهر والاجتماع كل ذلك مصحوبا بالبيعة وطاعة الشيخ وعدم اعتراض المريد وتلقينه اذكاراً يعمل بها فى نفسه صباحا ومساء وكل فرقة من هؤلاء تدعى انها على الحق وان غيرها من الفرق اما على الباطل أو دونها فى المرتبة عند الله واتخذت كل فرقة عيداً لمشايخها تذبح فيه الذبائح وتجتمع فيه كل الفرق وتتلى المناقب فى كرامات الشيوخ ومن يطلع على طبقات ود ضيف الله يندى وجهه من الخجل لكثير مما سمي بالكرامة وادعوا ان لهم قدرة على شفاء الامراض وعلاج الجنون واعطاء العقيم او العقيمة الذرية وادعوا ان لهم اتصالات بالرسول صلى الله عليه وسلم منامية يأخذون منه ويتلقون الأوامر وان لهم اجتماعات به صورية اى بصورته الحقيقية يقظة لا مناما وان لهم حضرتين الأولى الحضرة النبوية والثانية الحضرة القدسية وان فى الحضرتين تعرض لهم كل صغيرة وكبيرة تقع فى كل الكون وانهم ينظمون الكون فى الحضرتين وان لهم الباع الطويل فى محو شقاوة الشقى وفى اشقاء المعترض ان كان قد كتب سعيداً من قبل وان المريد ينتقل فى خدمتهم وطاعتهم على حسب اخلاصه فى الدرجات حتى ينكشف له اللوح المحفوظ ويرى كل شئ فيه وان الحواجز الحسية تزول من بصره وبصيرته فيرى وهو بالسودان الكعبة

والمسجد النبوى وكل العالم وانه ينتقل بطريق الخطوة حيث تطوى له الابعاد الى اى مكان شاء وان فى امكانه ان يمرض من يشاء اما عقابا على اعتراضه واما امتحانا له ليرقيه الى درجة اعلا الى غير ذلك من الهوس الذى يعارض القرآن المحكم والحديث الصحيح .

« ما يقال عن مشايخ الطرق الصوفية »

هناك قول مشترك بين كل الفرق الصوفية متفق عليه لم يشذ منه احد منهم اطلاقا: وهو انهم اخذوا هذه الطرق باورادها واذكارها وطقوسها واساليبها ونظمها وآدابها واحكامها واوامرها ونواهيها بسند متصل الى النبى صلى الله عليه وسلم كاسانيد الحديث النبوى الذى دونه الحفاظ فى كتبهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم غير ان اسانيد الاحاديث خضعت للنقد الصارم من الحفاظ حتى غربلوها غربلة ناعمة دقيقة فبان الصحيح والضعيف والموضوع بجهد يأخذ بمجامع الالباب ويرغم الباحث المتعمق على أن يحنى هامته إجلالا لهم واحتراما لاعمالهم وتقديراً للابداع الرائع العظيم اما هذه الاسانيد التى اخذت عن الاحياء او اخذت فى الرؤية المنامية او اخذت بالاجتماع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حال اليقظة بعد قرون من موته عليه الصلاة والسلام لم يتعرض لها حفاظ الحديث حتى نعلم صحتها او ضعفها او وضعها على الرسول صلى الله عليه وسلم وليس لها اثر فى كتب الحديث اطلاقا ولم يتناولها واحد من علماء مصطلح الحديث اطلاقا ولم ترد حتى فى كتب السيرة التى يتوقف العلماء عن الخوض فيها ولا تعتبر عندهم حجة لانها لا سند لها فيحكم به عليها غير ان لى ملاحظات اذكرها فيما يلى والله المستعان :

١ ـ فى كثير من الاسانيد يذكر الخضر فى السند والزعم بانه حي يعتمد على اسرائيليات لا قيمة لها قط والصحيح بعد التحقيق المعتمد على الكتاب والسنة الصحيحة المطهرة انه مات ويكفى قوله تعالى فى محكم تنزيله :

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ)

فهو الدليل القاطع على موته وقد وقفت على رسالة فى موت الخضر للشيخ الامين محمد

زين الناسخ هى تحت الطبع الآن قد اوفى فيها الموضوع حقه بالأدلة الشافية الكافية التى لا يردها الا المعاند الجهول .

٢ ـ اغلبية هذه الأسانيد جاءت عن طريق الرؤية المنامية ونحن لا ننكر رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم بل نعتقد ان رؤيته صلى الله عليه وسلم دليل المحبة الصافية وهى اكرام من الله لمن انعم الله بها عليه ولكن دين الله قد تم وكمل وليس للرؤية ان احتوت على امر أو نهى ان تنسخ شيئا من شرع الله بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتحضرنى هنا قصة تلقى ضوءاً على ما ذكرناه اختصرها فيما يلى، وهى مأخوذة من شرح الجردانى على الأربعين النبوية .

رأى أحد الناس الرسول صلى الله عليه وسلم يامره ان يذهب الى رجل آخر يقول له: احضر فى المكان الفلانى تجد كنزاً خذه لا تخرج منه الخمس لبيت المال وذهب الرجل ووجد الكنز واستفتى العلماء فأفتوه ان يخرج الخمس لأن الرؤية مع صدقها لا تنسخ حكما شرعيا البتة .

٣ ـ وفى بعض الاسانيد تبنى هذه الاسانيد على اجتماع فى حال اليقظة بالنبى صلى الله عليه وسلم وهذا الاجتماع فى حال اليقظة لم يرد عن صحابى واحد او تابعي واحد او تابع التابعى وهم خير القرون كما ورد بذلك النص الصحيح[٦] فهل هذه خاصية لمن جاء بعدهم ؟!! ونحن لا نرى نصا على ذلك من كتاب الله ولا من السنة المطهرة الصحيحة ولا حتى من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم وهم اهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية من الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم وامر كهذا تبنى عليه عبادة واعتقاد لا بد ان يبنى على دليل قاطع لا يتطرق اليه الاحتمال فالدليل اذا طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال .

---

(٦) وهو قوله عليه الصلاة والسلام (خير امتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) الحديث. أخرجه البخارى فى اكثر من موضع من صحيحه فقد أخرجه من حديث عمران بن حصين فى كتاب اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ٤/١٨٩ والشهادات ٣/١٥١ والرقاق ٧/١٧٣. واخرجه مسلم فى فضائل الصحابة ٤/١٩٦٣ ح (٢٥٣٣) .

٤ ـ كل الاسانيد تحتوى على اسماء اهل بيت النبوة اما الامام الحسين عن ابيه عن جده واما الامام الحسن عن ابيه عن جده والطابع التشيعى واضح فى ذلك لا يحتاج الى بحث طويل !!

٥ ـ وبعض الأسانيد تقتصر على الشيخ المؤسس للطريقة وانه تلقى المدد واخذ ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة وبين هذا الشيخ وبين الرسول صلى الله عليه وسلم قرون متعددة فلو صح هذا السند فإن فيه انقطاع يجعله من باب المعضل الذى سقط من سنده اكثر من واحد وهو سند مردود عند اهل الحديث .

ومن هذه الملاحظات المتقدمة وبعد التأمل المتجرد من الهوى سقط السند الذى بنيت عليه الصوفيه وإذا سقط السند انهارت النحلة من اساسها بقطع النظر عن مناقشة الخرافات والبدع والانحرافات فى الاعتقاد التى تزخر بها الطرق على اختلافها وتعج بها عجيج السوق المزدحم وتنفر منها الطباع السليمة والفطرة الخالية من السوائب .

وهناك اقوال تقسم اهل الطريق الى قسمين القسم الأعلى والقسم الأدنى ويبتدئ القسم الاعلى بالغوث الاقطاب ثم اهل الدائرة الخ .. ويبتدئ الأدنى بالمريد ثم السالك ثم الواصل .. الخ ولم يرد نص شرعى اطلاقا لهذا التقسيم ولا يوجد له اثر فى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا فى اقوال المفسرين للقرآن أو السنة ولا فى آراء الأئمة ولا جاء عن أهل القرون الثلاثة فمن اين جاء هذا التنظيم الذى يشبه الانظمة السياسيه الوضعية ؟ والملاحظ أنه يشبه الانظمة السرية ذات الأهداف المشبوهة التى لا تعيش إلا فى الظلام .

ومن أقوالهم التى تنسب الى المشايخ وقد لا توجد اطلاقا فيما ألفه المشايخ من كتب قول القادرية ان الشيخ عبدالقادر الجيلانى قال رجلى على رقبة كل ولي. وهذا القول خطير جداً لأن الرسل والأنبياء والشهداء والصالحين كل هؤلاء من أولياء الله. وقوله كل ولى تشمل الجميع لأن كل من الفاظ العموم ولا تخرج من عمومها الا المستثنى وهذا القول عام لا استثناء فيه. وإذا قلنا ان واقع الحال يدل انه لم يرد إلا اهل زمانه ومن يأتى بعدهم وكان هذا التخريج سليما يمليه حسن الظن فان وضع الرجل على رقاب المؤمنين الأولياء فيه اذلال لهم وقد كرم الله الانسان عامة ولا ينبغى لأحد أن يذله.

قال الله تعالى :

(* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

وحتى الحيوان فقد امر الرسول صلى الله عليه وسلم ان لا يضرب فى وجهه وان لا يوسم فى وجهه والمنع وارد فى النهى عن ضرب الوجه وهناك بعض من حديث صحيح يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم «حسب المرء من الشر ان يحقر أخاه المسلم»(٧) فاى احتقار اكبر من ان تضع رجلك على رقبته، بعد ان وصفته بانه ولى الله .

ثم ان هذا القول يعارض ما روى عن الشيخ عبدالقادر فى قوله : «دخلت من باب العلم فوجدته مزدحما ودخلت من باب العبادة فوجدته مزدحما ودخلت من باب التواضع فوجدته خاليا فولجت منه. ووضع الرجل على رقاب الأولياء كبرياء لا تليق بمسلم يخشى الله ويتقيه ويتكبر على عباد الله وفى رأيى ان هذا قول املاه الجهل بالدين وهوس وضع على الشيخ لا سند له وإنما يحاسب الشيخ بما ألفه لا بما وضع عليه وما طرد إبليس من الجنة إلا لأنه تكبر كما جاء فى القرآن .

ويقولون ان السيد احمد بن ادريس قال : «إذا نادانى مريدى وهو بالمغرب وانا بالمشرق أو عند جبل قاف لأجبته ولو كان صادقا لسمع رد الجواب بالبيك. كما يقولون ان السيد محمد عثمان الميرغنى قال : «إذا كنت فى هم وغم فنادنى بيا مرغنى انجيك من كل شدة. فهل قال هذان الشيخان ذلك ام هو وضع عليهما ؟ ومعلوم ان ابن عباس قال اركان الشرك خمسة او قال الطواغيت خمسة واولهم من دعا الى عبادة نفسه وثانيهم من عبد وهو راض وثالثهم من

(٧) اخرجه مسلم فى اثناء حديث فى كتاب البر ١٩٨٦/٤ ح (٢٥٦٤). واخرجه ابن ماجه فى الزهد ١٤٠٩/٢ ح (٤٢١٣). واخرجه الامام احمد فى المسند من حديث واثلة بن الاسقع ٤٩١/٣ .

عبد غير الله ورابعهم من تحاكم الى الطاغوت وهو الحكم بغير شرع الله وخامسهم من شرع للناس بغير ما انزل الله لأن الله تعالى يقول:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

ولما سمع عدى ابن حاتم وكان نصرانيا فاسلم جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: ما كنا نعبدهم من دون الله يا رسول الله فرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: ما معناه. الم يكونوا يحرمون عليكم الشئ فتحرمونه ؟ قال بلى قال الم يكونوا يحلون لكم الشئ فتحلونه ؟ قال بلى قال هذه عبادتهم»(٨) والنداء لا يكون الا لله فكيف يقول مسلم نادونى اجيب دعاءكم واكشف كروبكم ؟!! قد يكون هذا القول بهتانا على الشيخين ولو صح لكان خروجا عن شرع الله.

ومن أقوالهم: من لا شيخ له شيخه الشيطان. اذا كان المقصود به الشيخ الذى يعلمك شرع الله فهذا صحيح اما إذا كان كما هو مشاهد الآن المقصود منه ان تكون تابعا لشيخ من المتصوفة لا تعترض عليه حتى ولو ارتكب اثما فهذا باطل وهو من وحي الشيطان لا من وحي الرحمن لأن الله امرنا بالتعقل والتفكر والتدبر ونادانا يا أولى الألباب ويأولى النهى وامرنا ان نستعمل عقولنا لا ان نعطلها ونفكر بعقول الآخرين والدليل القاطع انهم يريدون التبعية والذيلية وعدم الاعتراض والمقصود شيخ الطريق قصيدة ابى مدين الغوث فهى الأساس لكل مريد عندهم وهذا هو الذى عطل العقول فخيم عليها الران وانعدم الانتاج والابتكار والابداع وصرنا الى هذا الوضع المخجل فى مؤخرة الامم.

ويقولون السيد احمد التجانى قال: ان صلاة الفاتح تعدل عدد كذا ختمة من القرآن الكريم ولو صح هذا وأظنه كما ذكر الشيخ عبدالرحمن الإفريقى فى الرد على التجانية صحيحا وليراجع القارئ هذا الرد الذى أشرنا اليه وهناك رد آخر حديث أقوى من الأول وفيه الحجج الدامغة التى لا تقبل الجدل والعناد بحال من الأحوال وانا لا اذكر اسمه الآن وقد بحثت عنه

---

(٨) هذا معنى حديث اخرجه الامام الترمذى فى سننه بسنده عن عدى بن حاتم ٣٤٢/٤ وقال عقبة: هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من حديث عبدالسلام بن حرب. وغطيف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث.

فى مكتبتىَ المتواضعة فلم اعثر عليه ولعل بعضهم استعاره ولم يرده كما هو الحال دائما وانا كثير النسيان وهم يعتمدون على ان لدى من النسخ كثيراً ولا يعلمون انى لا ابقى لنفسى سوى نسخة واحدة. اقول لو صح هذا لكان شرعا مخالفا لشرع الله فان اعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله إنما هو تلاوة كتابه الذى يثاب المؤمن بكل حرف منه بعشرة حسنات فكيف ان تكون هناك صيغة من صيغ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم لم ترد عنه لا فى حديث صحيح ولا ضعيف تعدل قراءة اصغر سورة من القرآن اللهم إلا أن يكون هذا هوساً من قوم مازجت عقولهم «الهستريا» لأن كل منحرف عن شرع الله لا بد أن يكون للشيطان عليه سلطان يوحى إليه زخارف القول فيتردى فى هاوية الضلال .

والأقوال كثيرة وعجيبة ومحزنة وليس مكان حصرها كلها هذه العجالة المختصرة جداً التى لم تكن مؤلفا علميا يدحض الأباطيل بالبراهين وإنما كان الغرض منها لفت انظار المسلمين الى مواطن الضلال لعلهم يرجعون اليه ويبحثون ليصلوا الى الحقائق المذهلة بانفسهم أو لعل غيوراً على دينه يتناول المواضيع كلها بافاضة فيخدم المسلمين بذلك خدمة تصرفهم عن الباطل الأغبر حتى لا تدمرهم العقائد الفاسدة فى الدنيا وتخلدهم فى النار فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

« واقع التصوف اليوم »

ان واقع التصوف اليوم هو ميراث الابناء عن الآباء عن الأجداد ولا يشترط فى الوارث علما ولا عملا ولا خلقا ولا زهداً ولا عفة يد أو لسان وإنما يرث الابناء اباءهم ويجلسون فى مناصبهم تجبى اليهم الاموال باسم الزكاة وهم ليسوا بمستحقين لها أو الهدايا وتارة تكون جبرية والنذور ولأمواتهم وثمن الدعاء والرقية والحجاب والبخرات والخيرة والمحايات والتنبؤ بالغيبيات ودفع المضار عن الانفس والمال والأهل وضريبة التبعية على الماشية والتجارة والزراعة وثمن الذرية التى يعطونها لمن حرم منها عقيما كان أو عقيمة وثمن شفاء المرضى بالجنون وغيره واسعار ما تقدم شئ معروف مسلم به لا اختلاف فيه ولكن تتفاضل الأسعار كما تتفاضل الأسعار عند الأطباء وكما يدفع المريض عند مقابلة الطبيب ثم يكون بعد الكشف عليه ثمن العلاج ان كان باجراء جراحة خفيفة او صعبة خطرة او غير ذلك فان أبناء المشايخ

اليوم لهم مثل ذلك والفرق فى التسمية فقط فانهم يسمون ما يعطون أولا «بالبياض» تم يتفق على نمن العلاج والحجاب بعد اجراء الفحص وفتح الكتاب «وهذه الكتب التى تفتح إنما هى كتب سحر تعج بالاختام والطلاسم والاسماء الأعجمية لمنفعة أو مضرة متل الديربى وشمس المعارف الكبرى وشمس المعارف الصغرى .. الخ» .

فالتصوف اصبح ورانة واصبح مهنة تدر المال ويعيش اليوم المتصوفة فى ترف بالغ فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمركب وامتلاك المزارع والمنازل والدكاكين والعمارات الى غير ذلك مما لا يستحسن ذكره واللبيب يفهم بالاشارة والغالب من مشايخ اليوم جهلاء لا يعرفون من الاسلام إلا اسمه ولا من الدين إلا اسمه ومن العجيب الغريب حقا ان بعض المثقفين نقافة غربية مدنية لا صلة لها بالاسلام من قريب أو بعيد يتبعون هؤلاء الجهلاء ويسيرون فى ركابهم بحماس منقطع النظير يدعو للشفقة بهم والحزن عليهم غير انك لو تفحصت الأمور فى تانى ودرست الموقف فى بطء ثم تابعت سلوك بعضهم لوجدت بين الرماد وميض نار وصار الاتباع عندك تلاثة اقسام رعاع جهلاء قد يعذرون بالجهل ان كان الجهل عذراً مقبولا فى شرع الله. ومثقفون ينتمون الى «المحفل الماسونى» يعملون بتخطيط محكم لتدمير الإسلام حتى لا تقوم له قائمة تضر بمصالح اليهود والغربيين والشيوعيين وفى تخطيط حكماء صهيون تجد الجواب الشافى. ومثقفون ينقسمون على قسمين قسم يتبع الاتباع الكبار من اجل المناصب التى يعملون من أجلها ويملك هؤلاء الرؤساء وضعهم فيها إذا رضوا عنهم. وقسم رأى نخبة من المثقفين ثقافة يحترمها ويؤمن بها وهو خالى القلب والعقل من فهم الاسلام فيسير على دربهم ويترسم خطاهم مقلداً بحسن نية ولا ادرى ان كان يعذر امثال هؤلاء المخدوعين فى شرع الله ام لا وعلى كل حال الأمر مفوض فيهم الى الله وحده. قد يقول بعض الناس انك ظلمت شيوخ اليوم فليسوا كلهم على هذا المنوال وان صدق على بعضهم بل ربما كان بعضهم فى خدمة الاستعمار يوم كان الاستعمار مخيم على هذه البلاد وقد كوفئ بعضهم من الانجليز بان اعطوا لقب سير وحملوا على صدورهم نيشان القدسين ميخائيل وجورج وهو صليب ذهبى لأنهم قدموا للامبراطورية اجل خدمة وانا اقول رداً على هؤلاء الطيبين لن ادخل معكم فى جدل عقيم ولكنى انقل لكم بأمانة رأى امام من ائمة الصوفية ما دمتم تؤمنون بقوله ولا تعترضون عليه قال الشيخ عبدالعزيز الدباغ فى كتابه الذهب الابريز «قد يكون ابناء الصالحين فى آخر الزمان اشر الناس لأنهم تناولوا ما كان ساقطا فى اعين آبائهم من المال والجاه

ولأن ابليس اللعين أرد أن يشفى غيظه فيهم لأن اباءهم اعموا طرقه وسدوا مسالكه». ولن اعلق على هذا القول بحرف واحد .

عاش مشايخ اليوم فى المتصوفة عالة على المجتمع كالطفيليات يعيشون من عرق الدهماء والغوغاء والجهلاء ولا يعلمون شيئا بل يستعمرون العقول وهو اسوأ من استعمار الاجسام واخطر على الأمة منه ولقد استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم من الكسل(٩) ضمن دعوة من دعائه المأثور ولقد رأت عائشة رجلا يصلى فى المسجد ولا يبارحه فقالت: ما هذا ؟ فقيل لها احد القراء، فقالت رحم الله ابن الخطاب كان من القراء وكان إذا تحدث اسمع وإذا ضرب اوجع وإذا مشى اهتزت الأرض من تحت قدميه ورأى عمر رضى الله عنه رجلا يصلى فى المسجد ويكثر من الصلاة ولا يبارح المسجد فقال: من هذا فقيل له احد القراء، فقال ومن ينفق عليه ؟ قيل أخوه . فقال اخوه خير منه ثم أتاه ووقف حتى سلم من صلاته وجعل يضر به بالدرة ويقول: لا يقعد احدكم عن طلب الرزق وقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. ان وجود طبقة من الناس متعطلة عن العمل وتتخذ من الدين مهنة للربح والتجارة كما كان يفعل الرهبان والقسس امر لا يقره شرع الله بحال من الأحوال . ونحن اليوم نجزم قطعا بان مشايخ الطرق على امتداد قطرنا كله يعيشون متبطلين بلا عمل ويرتزقون من عرق الآخرين فى ترف ورفاهية فاين العفة ؟ واين الزهد المزعوم ؟ واين التقيد بشرع الله المحكم ؟

« القبـــاب »

ان القباب بدعة احدثها الشيعة فهم أول من بنى القباب ولم تكن قط قبلهم وما سبقوا إليها اطلاقا وانى لاتحدى باحثا عالما ينقل نقلا صحيحا من مصادر التاريخ ان القباب قام ببنائها احد قبل الشيعة. انها قطعا من اختراعات الشيعة وهذا امر لا يجهله باحث مدقق مطلع على امهات المراجع فى التاريخ الاسلامى على اختلاف المراجع وسموها المشاهد وجعلوا لها طقوسا خاصة فى مؤلفات عجيبة . وقع فى يدى مؤلف من هذه المؤلفات فى زيارة مدينة

(٩) ورد استعاذته صلى الله عليه وسلم من الكسل فى اكثر من حديث منها حديث أنس الذى اخرجه البخارى فى الدعوات ١٥٩/٧ ،ومسلم فى الذكر والدعاء ٢٠٨٠/٤ وحديث عائشة الذى اخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الدعاء ١٢٦٢/٢ ح (٣٨٣٨) .

مسهد بايران حيث دفن الامام الرضا. كيف تدخل وماذا تقول وكيف تخرج وماذا عليك الخ وهنا وان لم توجد كتب خاصة بزيارة القباب الا ان الأمور معروفة مشهورة بين الناس لا تحتاج الى قراءة او كتابة لأن الزائر يدخل المقام او المشهد المزار او القبة او البنية حافيا ويطوف فى الغالب الأعم حول القبر ومعلوم ان الطواف عبادة لا تكون إلا حول البيت الحرام فقط ثم يقف بادب ويسلم على الميت ويذكر حاجته ويطلب قضاءها ثم يبرك على ركبتيه عند رأس التابوت أو الكساء ويأخذ فى التراب وهو فى الغالب رمل يجلب من اجل ذلك يمسح به وجهه وما شاء من جسمه ثم يأخذ بعضه معه بركة لابنائه ومنزله وماله وقد يوضع عند بعضهم فى الماء ويشرب، ثم إن من القواعد المعروفة ان زيارة النساء يوم الأثنين غير ان بعض الرجال يشاركون النساء فى ذلك وزيارة الرجال يوم الجمعة حيث تقام الأذكار الجهرية بتحريف اسماء الله على نقرات الطبول فى اغلب القباب وانهم بعد نهاية الذكر والمدائح التى تزخر بالمبالغات والتغالى يطوفون حول القبة من الخارج وينادون الشيخ وان النساء على الرغم من تخصيص يوم لهن فانهن يحضرن يوم الجمعة فى احسن زينة والعطر الشذى يفوح منهن وهناك الشباب الماجن ينتظر على العربات الفارهة وغير الفارهة يقود بعضهن الى مواطن الغناء والفجور وحتى اللواتى لا يذهبن الى المواخير يختلطن بالرجال بشكل مزرى لا يرضاه شرع الله. وفى كل قبة أو بنية يوضع صندوق للنذور يدفع كل واحد على حسب نذره الذى نذره وفى الختام يقوم الشيخ خليفة الميت بفتح الصندوق ويأخذ ما فيه من مال وفير وهذا العمل من باب أكل اموال الناس بالباطل فضلا عن ان النذر عبادة والعبادة لا تكون إلا لله وفى صرفها لغيره فقد اشرك معه فيما هو خاص به وانني اسجل هنا ان كثيراً من الموحدين عندما يرون هذه الأشياء يرفعون أصواتهم بالدعاء لله الواحد القهار أن يقيض لهذه الأمة رجلا مثل عبدالعزيز العادل فيهدم كل هذه القباب ويقضى على الفساد ويحطم الشرك ويزيل الاحتيال والنصب وتحضرنى هنا أبيات للصنعانى فى كتابه تطهير الاعتقاد يقول رحمه الله :

اعادوا بها معنى سواع مثله	يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما هتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا فى سوحها من نحيرة	اهلت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبلا	ويستلم الأركان منهن باليد

والكلام هنا يطول ولعل فيما اشرنا اليه يكفى والدليل العملى الواقعى اليوم اقوى من

الكلام والوصف النظرى فعلى القارئ أن يقف بنفسه على هذه القباب والبنايا ويحكم بعد ذلك فان دلالة الفعل اقوى من دلالة القول والله المستعان .

« تفـرق المسـلمين »

لا شك ان واقعنا اليوم يدل على الشتات وحالنا يعبر فى وضوح عن الانقسام ووحدة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها صارت فى سجلات التاريخ السحيق وحـل التفـرق المصحوب بالبغضاء والتنافر والتنابذ والخصام على مجتمعنا بوجهه الكالح المقيت وبتنا كالايتام فى مائدة اللئام. ان الله وحده سمانا المسلمين والرسول صلى الله عليه وسلم سمانا المسلمين وابراهيم خليل الرحمن عليه السلام الموحى إليه من عند الله سمانا المسلمين وجاء القرآن العظيم لنا بهذا الاسم العظيم فنحن المسلمون ولا شئ غير ذلك اطلاقا فمن دعا الى فرقة ضمها كرقعة مع كلمة المسلمين فقد فرق الشمل وحطم الوحدة وقضى على الاجتماع وليس من العقل الرجيح ولا الفهم الصحيح ولا القول الحق العادل ان نزيد على تسمية الله ورسوله وخليله اسما آخر يدل على فرقة وحزب والله تعالى يقول :

(وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «افترقت بنو اسرائيل على اثنين وسبعين فرقة وستفترق امتى على ثلاث وسبعين كلها فى النار إلا ما عليه انا واصحابى»[١٠]. فان لم يكن للصوفية مأخذ قط إلا أنها فرقت المسلمين واضعفتهم لكفاها اثما كبيراً قال شاعر حكيم :

كونـوا جميعـا يا بنـى إذا اعـترى   خطـب ولا تتفـرقـوا أفـرادا
تأبـى الـرمـاح إذا اجتمعـن تكسـرا   وإذا افتـرقـن تكسرت احـادا

(١٠) اخرجه الترمذى فى موضعين فى الايمان فقد اخرجه بمعناه من حديث عبدالله بن عمرو وفى اوله زيادة ١٣٥/٤ ح (٢٧٧٩) وقال عقبة: هذا حديث حسن غريب مُفَسرٌ لا نعرفه مثل هذا إلاّ من هذا الوجه . واخرج بعضه من حديث ابى هريرة بنحوه ١٣٤/٤ ح (٢٧٧٨) وقال: حديث ابى هريرة حديث حسن صحيح .
واخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن ١٣٢٢/٢ ح (٣٩٩٣) من حديث أنس وفيه (وهى الجماعة). واخرجه الامام احمد فى المسند بمعناه من حديث انس ١٢٠/٣ .

« مقولـة خاطـئة »

يقولون من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق. وهذا كلام خطير اذا وزن بميزان شرع الله فالفقرة الأولى تدل على ان الفقه وهو الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أراد الله به خيراً فقهه فى الدين»(١١) والفقيه هو العالم الفاهم للتنزيل والله يقـول : «إنمـا يخشـى الله من عـباده العلمـاء» فكيف يكون الفقه اذن بلا تصوف سبيلا الى الفسق الا يكون هذا القول معارضا لشرع الله ؟ اما الفقرة الثانية وهى الزندقة لمن تصوف من غير علم فمن العجيب المضحك المبكى فى آنٍ واحد ان يرويها هؤلاء الجهلاء او انصاف المتعلمين وهم واتباعهم فى الرعاع الجهلاء يقولون فى غير حياء ولا خجل، نحن المتصوفة وبهذه الفقرة الصريحة يحكمون على انفسهم بالزندقة ونحن لا نعارضهم فى حكمهم هذا لأن المكلف يؤخذ باقرار لسانه . والله المستعان !

---

(١١) اخرجه البخارى فى كتاب العلم ٢٥/١ ـ ٢٦. واخرجه مسلم فى كتاب الزكاة ٧١٨/٢ ح (١٠٣٧) .

« خاتمـــة »

هذه العبارات التى سقناها ليست بحثا علميا مدعما بالبراهين ورسالة وافية تقصت الموضوع فى دقة الكاتب المستبين وانما هي عجالة مختصرة تسوق الى البحث المركز المبنى على المراجع الصحيحة والأدلة الناصعة وربما لو طالت بنا الحياة فترة ان نكتب باسهاب مبين أو لعل حادبا على الاسلام غيوراً على الدين يتناول الموضوع من كل جوانبه ونكون قد دللنا على الحق والخير والدال على الخير كفاعله. ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه انيب. اللهم ارنا الحق حقا فنتبعه وارنا الباطل باطلا فنتجنبه ولا تكلنا الى نفوسنا وشهواتنا ووسوسة الشيطان طرفة عين يا ارحم الراحمين .

محمد الفاضل التقلاوى

مصـادر التخريج :

١ ـ صحيح البخاري ـ ط المكتبة الاسلامية ـ تركيا .
٢ ـ صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي نشر وتوزيع ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية ط ١٤٠٠هـ .
٣ ـ سنن الترمذي مراجعة عبدالرحمن محمد عثمان ط دار الفكر الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ .
٤ ـ سنن ابن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ط دار الفكر .
٥ ـ سنن الدارمي طُبع بعناية محمد احمد دهمان نشر دار احياء السنة النبوية .
٦ ـ مسند الامام احمد ط المكتب الاسلامي ودار صادر بيروت .
٧ ـ الابداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ ط دار الاعتصام الطبعة السابعة .

